



قال ربنا في كتابه الكريم: {وَتُرِيدُ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلُهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ} {القصص: 5}. والإسلاميون مع غيرهم من الفئات التي استضعفـت في بلدان العالم العربي على مدى عشرات السنين وكان مكانها المعتقلات والسجون ونصيبها القتل والتعذيب، هم اليوم المرشحون قبل غيرهم ليكونوا أئمة الناس في بلدانهم، وكلمة أئمة في القرآن والحديث تعني رؤساء الناس وحكامهم أكثر مما تعني أئمتهم في صلاة الجمعة.

الإسلاميون العرب اليوم أمام تحدي كبير ربما لم تتح لهم ظروف القدرة ومحاولات الاستئصال التي كانوا واقعين تحتها أن يستعدوا له، وهو كيف سيحكمون هذه الشعوب التي ثارت وقدمنـت الشهداء من أجل تحررها من الاستعمار الداخلي المتمثل بالطغـاة والمستبدـين الذين حكمـوها لصالـح الاستعمـار الخارـجي الذي خـرج منها ليترك بدلاً عنه وكلـاء وعملـاء يحققـون له ما يريدـ.

الإسلاميون الآن أمام استحقاقات تبدو متعارضة ومتناقضـة ما لم نجد لها المخرج المناسب. قواعدهم التي تربـت على أن الإسلام دين ودولة وقدمـت التضحيـات وهي تناضل لتحقيق حلم الدولة الإسلامية ينتظـرون من قيادـتهم التي بدأت تتسلـم شيئاً من مقـاليد السلطة أن تتحقق لهم هذا الحـلم الذي طـال انتظـارـه.

وبال مقابل جـماـهـيرـ الشـعـوبـ العـرـبـيةـ المـخـلـقـةـ بـتـكـوـيـنـاتـهاـ المـتـنـوـعةـ عـرـقـياـ وـدـيـنـياـ وـثقـافـياـ تـنـظـرـ لـهـمـ بـفـلـقـ وـتـوـجـسـ،ـ فـهـيـ تـخـشـيـ أـنـ تـتـحرـرـ مـنـ طـغـيـانـ لاـ دـيـنـيـ لـتـقـعـ تـحـتـ طـغـيـانـ يـقـهـيـانـ يـقـهـيـانـ بـاسـمـ الإـلـهـ.ـ ثـلـاثـةـ نـمـاذـجـ عـرـفـهـاـ الـعـالـمـ الـمـعاـصـرـ لـلـدـوـلـةـ إـلـاسـلامـيـةـ أـولـهاـ الـجـمـهـورـيـةـ إـلـاسـلامـيـةـ فـيـ إـيـرـانـ حـيـثـ وـلـاـيـةـ الـفـقـيـهـ وـهـيـمـنـتـهـ عـلـىـ كـلـ عـنـاصـرـ السـلـطـةـ وـالـقـرـارـ مـاـ يـفـقـدـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ لـدـيـهـمـ الـكـثـيرـ مـنـ فـعـالـيـتـهاـ وـحـقـيقـيـتـهاـ،ـ وـالـنـمـوذـجـ الطـالـبـانـيـ فـيـ أـفـغـانـسـتـانـ الـذـيـ أـعـطـىـ صـورـةـ بـشـعـةـ لـلـدـوـلـةـ إـلـاسـلامـيـةـ بـسـبـبـ تـخـلـفـ الـذـينـ أـقـامـوـهـ فـيـ مـجـالـ فـهـمـهـمـ لـلـإـسـلامـ وـفـيـ مـجـالـ الـعـلـومـ الـمـعاـصـرـةـ،ـ فـكـانـوـ مـثـالـاـ مـنـفـرـاـ مـنـ الـدـوـلـةـ إـلـاسـلامـيـةـ رـغـمـ طـيـبـهـمـ وـإـخـلـاصـهـمـ

وحسن نواياهم. ويبقى النموذج الثالث القائم للدولة الإسلامية وهو نموذج المملكة العربية السعودية، وهو نموذج لا ترحب فيه الشعوب العربية ولا تتطلع إلى تقليده، لأنَّه نموذج ينتمي إلى زمن قديم ويتطور ليستوعب قيم المعاصرة والتحديث في المجالات الاجتماعية والسياسية ببطء لا يغري الشعوب بتقليده. ثم ظهر مؤخرًا نموذج دولة العدالة والتنمية في تركيا الذي أثبت نجاحه وأثبت للناس أن الإسلام هو الحل حتى لو كان من دون شريعة.

أردوغان وحزبه كانوا واقعيين وعقلاء وأدركوا أنه لاأمل على المدى القريب والمتوسط في إعادة تركيا إلى حكم الشريعة الإسلامية، وأنَّه لا بد من عمل شيء عاجل لتحسين معيشة الناس والنهوض بيادهم اقتصاديًّا وعلمياً وسياسيًّا من خلال إعطاء الفرصة لترسُّخ قيم الديمقراطية والحرية في المجتمع التركي، وحرمان الجيش التركي –الحاكم الحقيقي لتركيا– من أية ميراثات أمام الأتراك وأمام الدول الغربية التي يعمل لإرضائهما، لإنها جهاد العاملية الديمقراطية كما سبق له أن فعل كلما قوي نفوذ المسلمين هناك وصار يهدد العلمانية عندهم، العلمانية التي اشتري بها أتاتورك استقلال تركيا عندما تهدَّد بشدة أثناء الحرب العالمية الأولى، فضحى بالشريعة والإسلام ورضي العلمانية وتحجيم دور الدين في المجتمع، مقابل أن يضمن الحلفاء استقلال تركيا وتخرج القوات البريطانية واليونانية من الأجزاء الكبيرة من تركيا التي وقعت تحت احتلالهما. ما يزال استقلال تركيا منقوصاً لأنَّه مشروط بعلمانية مفروضة عليها من خارجها وتحرسها قوى عسكرية ارتبطت مصالح أصحابها باستمرار العلمانية رغم أنها مرفوضة من أغلبية الشعب التركي، لكن تبقى القوة هي التي تفرض ما شاء إلى أن يُعدُّ الحق ما استطاع من قوة ليزيل الظلم والطغيان. أردوغان الإسلامي الملزِم كان ذكيًا جدًا وأراد أن يتقي الله ما استطاع في مجال السياسة فأعلن قبله للعلمانية، وتقدير مع حزبه ليحكم تركيا بلا خيانة أو سرقة لخيرات البلاد، فازدهرت تركيا ازدهاراً رائعاً في بضع سنين، وتعاظمت شعبية حزب العدالة والتنمية في تركيا مما حماه حتى الآن من أن ينقض الجيش التركي عليه كما انقض على أحزاب إسلامية من قبله. شعار الإسلام هو الحل يعبر عن حقيقة يؤمن بها أكثرنا، لكننا لا ننتبه إلى أن الحل الإسلامي لمشكلتنا لا يكمن في تطبيق الشريعة فقط، بل في تربية الناس على الأمانة والخوف من الله، بحيث يعملون لصالح البلاد والعباد لا لصالحهم الشخصي عندما يكونون في موقع المسؤولية، وبحيث يتورعون عن أكل المال العام والرشوة تماماً كما يتورعون عن أكل مال الناس بالباطل، عندها يبارك الله للأمة في خيراتها التي تراكم بعد توقيف الهدر والنهب لتهضم البلاد وتطور على كافة الأصعدة، وهذا ما حصل في تركيا رغم الغياب الكامل للشريعة الإسلامية عندهم، ورغم أن قوانينهم علمانية لا دينية كالقوانين الأوروبيَّة تماماً. قد يتمنى بعض المسلمين عندنا أن لو يستطيعون أن يفعلوا مثل ما فعل أردوغان وحزبه، لكن لا أحد من القواعد الإسلامية عندنا سيقبل منهم ذلك، وبخاصة ونحن نؤسس لحكم شعبي ديمقراطي يشارك فيه الجميع ويكون لجميع مكونات الأمة. إن العلمانية التي رضي بها أردوغان وتكييف معها في تركيا هي عودة إلى الوراء بالنسبة لشعوبنا التي يغلب عليها الدين والحب للإسلام، وستصبح هدفاً لأعداد لا تحصى من الشباب المجاهد الذي سيستحل قتل القائمين عليها والمنادين بها، ولن تنجح في بلادنا أكثر مما نجحت الدكتاتوريات التي عانينا منها عشرات السنين وما زلنا نعاني منها في بعض بلداننا. فعندما زار أردوغان مصر والتقي بإسلاميتها ونصرهم بقبول الديمقراطية مع العلمانية كرمز ووحدة كان واضحًا رفض القواعد الإسلامية لنصيتها.

إذن ما العمل؟ الشعوب العربية المنتفحة لا تريد أبداً من النماذج الإسلامية المطروحة أمامها لا الإيرانية ولا الطالباني ولا السعودي ولا حتى التركي، والإسلاميون اليوم أمام فرصة لقيادة شعوبهم نحو حياة أفضل سيكون من الغباء أن يضيعوها وإن كانوا مدركين أن الوقت لم ينزل غير مناسب لا على مستوى الشعوب العربية ولا على مستوى المؤثرات الدولية التي ما زالت لها كلمتها في تحديد مصير بلادنا لتطبيق الشريعة الإسلامية. لا بد لنا من مخرج لا نضحي فيه بديننا كما لا نضحي من أجله بشعبيتنا وتطلع الجماهير العربية إلى الخلاص من واقعها الأليم على أيدينا.

مقالي هذا هو لوصف هذا المخرج وإن كنت سأؤجل التفصيل في تأصيل ما سأقتصره إلى القسم الثاني من هذا الكتاب الذي

أخصصه للتأصيل المفصل لمن يرغب في معرفة الأسس التي تقوم عليها الأفكار والتصورات التي سأقدمها في هذا المقال.

أولاً:: سأقدم تصوري للدولة الإسلامية التي يجب أن نسعى إليها لو كنا نعيش في مجتمع جميع أهله مسلمون ومتدينون ومن مذهب واحد. مفتاح الحل يمكن في إعادة الاهتمام بكلمة وردت مرات عديدة في القرآن الكريم نتلوها ونمر عليها دون تدقيق في معناها وكأنها واضحة لنا وضوح الشمس ولسنا في حاجة إلى التمعن فيها. إنها (الحكمة) التي يقول تعالى إن الرسول -
-صلى الله عليه وسلم- والرسل الذين جاؤوا قبله إنما جاؤوا ليعلموها للناس مع الكتاب، ولنتأمل هذه الآيات الكريمة: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَنْذُرُهُمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَبِرْزَكِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَرِيزُ الْحَكِيمُ} البقرة129 . {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْكُمْ يَنْذُرُهُمْ آيَاتِنَا وَبِرْزَكِكُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَبِعِلْمِكُمْ مَا لَمْ تَكُنُوا تَعْلَمُونَ} البقرة15 {وَإِنْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيهِمْ} البقرة231 {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْتُّورَاةَ وَالْإِنْجِيلَ} آل عمران48 {لَقَدْ مَنَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَنْذُرُهُمْ آيَاتِهِ وَبِرْزَكِهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} آل عمران164 {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُّلْكًا عَظِيمًا} النساء54 {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضْلُلُوكَ وَمَا يُضْلِلُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلِمْتَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} النساء113 {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى الْدِيْنِ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُّسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْتُّورَاةَ وَالْإِنْجِيلَ...} المائدة110 {وَإِنْكُرُنَّ مَا يُتَلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا} الأحزاب34 {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ بِرُسُلٍ مِّنْهُمْ يَنْذُرُهُمْ آيَاتِهِ وَبِرْزَكِهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} . الجمعة2 .

إن الرسل جاؤوا ليعلموا الناس شيئاً ثالثاً (الكتاب) و (الحكمة) ، الأول: الكتاب وهو ما يكتب عليهم من فرائض ومحرمات وعقائد، والحكمة هي ما يمكنهم الوصول إليه بأنفسهم من خلال العلم والتفكير السليم والخبرة الحياتية الطويلة لكن الرسل يقدمون للبشرية دفعه وجرعة من هذه الحكمة تسرع تقدمها وتطورها نحو حياة أفضل لجميع أبنائها.وهكذا نجد أن ما جاء به الرسل بما فيه محمد -صلى الله عليه وسلم- نوعان من الأمور: نوع ما كان للبشر أن يكتشفوه بأنفسهم مهما طال بهم الزمن والتجارب وهو معرفة الغيبيات ومعرفة ربنا وصفاته وأسمائه ومعرفة الأوامر التي يريدنا الله أن نعبده بطاعتني لها ومعرفة أخبار من قبلنا الذين اندثرت آثارهم وصار يستحيل علينا بعلومنا المحدودة أن نعرفها معرفة يقينية وغير ذلك مما جاء في القرآن والسنة، أما النوع الثاني فهو الكثير من الإرشادات والنصائح والتعليمات المفيدة لنا في حياتنا من أجل دينانا ومن أجل آخرتنا، لكن كان من الممكن لنا أن نكتشفها بأنفسنا. من علمائنا القدامى من فسر الحكمة الواردة في الآيات السابقة بالسنة النبوية على اعتبار أن الكتاب هو القرآن الكريم، لكن هذا تأويل وصرف للفظ الحكمة عن ظاهره ومعناه المباشر دون داعٍ وبخاصة أن القرآن الكريم جاء بلغة العرب التي هي أقدر اللغات على التعبير الدقيق الذي لا يلتبس على الأفهام {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}يوسف2. الحكمة هي الحكمة والأمانة هي الأمانة.. إن استقام لنا فهم كلام ربنا دون صرفه عن ظاهره فإنه لا يصح أن نتأوله ونفسره بغير المعنى القريب المباشر لألفاظه.

وهذا يعني أنه ليس كل ما أمر به الرسول -صلى الله عليه وسلم- هو دين مفروض علينا نأثم بمخالفته ويتوجب علينا تنفيذه والتقييد التام به، فالرسول -صلى الله عليه وسلم- عندما يأمر أصحابه أن يطفئوا السراج إذا ناموا ويحذرهم أن الفارة قد تصدمه وتقلبه فيشتعل حريق خطير وهم نائمون ما كان يشرع لهم دينا بالمعنى الحرفي للدين، إنما كان يقدم لهم شيئاً من الحكمة المفيدة لهم ويعلمهم كيف يفكرون التفكير السليم بأمور معاشهم، لذا أخطأ -صلى الله عليه وسلم- عندما أبدى رأيه في تأبير النخل (أي تلقيحه) حتى يثمر فعل الصحابة برأيه وتركوا تأبير النخل فلم يثمر، فأخبرهم بعدها أن ما

يحدثهم به عن الله حق هو معصوم فيه من الخطأ، حيث قال فيما رواه مسلم في صحيحه: "إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلِيَصْنَعُوهُ، فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ طَنَنًا، فَلَا تَؤَاخِذُنِي بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَثْتُكُمْ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا فَخَذُوا بِهِ، فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ". وفي رواية أخرى أنه قال: "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمْرَتُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ دِينِكُمْ فَخَذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمْرَتُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ رَأْيِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ". أما أمور دنياهم فهم أعلم بها منه كما قال في رواية ثالثة. مع ذلك جاء الإسلام بفرائض وتحريمات تحقق للناس منافع ومصالح كان يمكن لهم عندما تتقدم علومهم ومعارفهم أن يكتشفوها بأنفسهم، ومثال ذلك تحريم الربا وفرض الزكاة.. إنني أدعوكم للتأمل في الأزمة الاقتصادية العالمية الحالية وكيف تحاول البشرية حلها والتغلب عليها من خلال تشريعات وإجراءات ليست إلا صورة من صور الزكاة وتحريم الربا. الفوائد المصرفية في أوروبا ما تزال بحدود نصف بالمئة، أي تقترب من الإلغاء، والحكومات تضخ الأموال لتنعش قدرة الناس الشرائية لتحمي الكثير من الشركات والمصانع من الإفلاس الحتمي لو زاد الركود عن حد معين وقل تصريف البضائع، وهو الشيء ذاته الذي تفعله الزكاة في الإسلام حيث ترفع قدرة الناس الشرائية ليعود المال الذي ينفقه الأغنياء بالنفع عليهم وعلى مشاريعهم التجارية والصناعية. تحريم الربا وفرض الزكاة شيئاً فشيئاً نافعان كان يمكن للبشرية أن تصل إليهما بنفسها، لكن الخالق الرحيم أراد أن يحمينا عشر المؤمنين به والطائعين له من أن نتعلم من كيسنا - كما يقول المثل - ومن أن ندفع الأثمان الباهظة قبل أن نكتشف تلك الحقائق، فشرعوا في دينه وفرضها علينا وجعل التزامها عبادة يختبر بها طاعتنا له فيبيتنا عليها، وأن أهواينا قد تعمي أبصارنا فنتجاوز أضرار بعض الممارسات وننغمس فيها بقصد المنفعة الشخصية العاجلة لنقود المجتمع كله إلى الأزمات والمعاناة. الفرائض والتحريمات في دين الله لها غaitan لا تتعارضان، الأولى: أنها تعبدية لاختبار طاعة المؤمنين لربهم وعدم استكبارهم عن تنفيذ أوامرها، والثانية: إصلاح أحوالهم المعيشية، ولنأخذ مثلاً الخمر والميسر. قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنَفِّعُونَ قُلِ الْعَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} البقرة 219.

ونحن نعلم من السيرة أن هذه الآية لم تحريم الخمر والقمار مع أنها بينت أن أضرارهما أكثر من منافعهما، ونعلم أن كثيرين من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - استمروا في تعاطي الخمر ولعب القمار رغم الآية الكريمة لأنهم كانوا مدميين، والمدمن يجد صعوبة في الإقلاع عمّا أدمّن عليه، وقد مضى زمن ليس بالقصير قبل أن تنزل آية أخرى تحرم الخمر والميسر بشكل نهائي وقاطع. كان الناس في حاجة إلى التحرير الذي يفرضه ربهم الرحمن عليهم دون انتظار أن يصلوا إليه يوماً ما بأنفسهم، وذلك من أجل مصلحتهم الدنيوية قبل مصلحتهم الأخروية. والله لم يحرم علينا إلا الخبائث التي أضرارها أكبر من منافعها، واعتبر التزامنا بهذا التحرير الذي هو من أجلاها ولحمياتنا، عبادة له يعطيانا عليها الجنة، مع أننا إن كنا عقلاً سنتمنع عن هذه المحرمات من أنفسنا لأننا مفطرون على الحرمن على ما ينفعنا. قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَبَعِّئُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِيَّ الَّذِي يَجُدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَنْهَاهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّزُوهُ وَأَصْرَرُوهُ وَأَتَبَعُوهُ الْنُّورَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ أَوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} الأعراف 157. لكن من رحمة ربنا ولثقته بنا وبحكمتنا لم يكثر علينا من الفرائض والتحريمات، بل سكت عن الكثير من الأمور وتركها لنا ولحكمتنا، أي الكثير من الأمور بقيت معلقة في مرحلة {وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} حيث تفرض علينا عقولنا بما جبّت عليه من حكمة أن نبتعد عنها دون أن يكون وقوتنا فيها مداعاة للعقاب في الآخرة، إذ تكفينا العقوبة الحتمية التي تقع علينا عندما نرتكب تلك الأمور التي ضررها أكبر من نفعها، فالذي يدخن التبغ من أجل المتعة عقوبته حتمية من خلال الضرر الصحي الذي يصيبه نتيجة التدخين دون أن يكون للتدخين حكم شرعي من تحليل وتحريم. نعود إلى قوله تعالى: {وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} لتتبين أصلاً عظيماً من أصول ديننا لم ينتبه له القدماء وهو مجيء لفظ الإثم مكان لفظ الضر حيث الضر هو الذي ضد النفع، وهذا يعني أن الإثم والضر يحل كل منهما محل الآخر في الإسلام، وبالتالي لم يحرم علينا ربنا إلا ما هو ضار لنا ولا يمكن أن

يحرم علينا شيئاً نفعه أكبر من ضره. وهكذا نجد الإسلام دين الفطرة والعقل والمنفعة بخلاف باقي الأديان التي قد تمحن الناس بتحريمها عليهم بعض ما ينفعهم أو بفرضها عليهم بعض ما يضرهم. ولا عجب إن لم نجد في القرآن والحديث الشريف مفهومي الخير والشر كمفهومين مطلقين كما هو الحال في الأديان والمعتقدات الأخرى. لا شيء هو خير أو شر بشكل مطلق، بل هنالك ما هو خير لنا من حيث غلبة المنفعة لنا فيه على المضرة وهنالك ما هو شر لنا من حيث غلبة الضرر فيه لنا على النفع. هنالك خير وشر بالنسبة لنا نحن البشر حيث الخير هو النفع وحيث الشر هو الضرار، أما بالنسبة إلى الله فالأمور كلها متساوية لأنه لا شيء قادر على نفعه ولا شيء قادر على ضره فهو الصمد الغني القدير. يقول ابن حجر في فتح الباري: وأخرج الدارقطني من حديث أبي ثعلبة رفعه "إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلاتعتدوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها" وله شاهد من حديث سلمان أخرجه الترمذى، وأخر من حديث ابن عباس أخرجه أبو داود. وقد روى معنى هذا الحديث مرفوعاً من وجوه آخر، أخرجه البزار في مستنه والحاكم من حديث أبي الدرداء عن النبي - صلى الله عليه وسلم -. قال: (ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلاوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً ثم تلا هذه الآية : وما كان ربكم نسياناً) مريم : 64، قال الحاكم: صحيح الإسناد، وقال البزار: إسناده صالح . وقال - صلى الله عليه وسلم . فيما رواه البخاري: "الحلالُ بينَ، والحرامُ بينَ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كثِيرٌ مِنَ النَّاسِ. فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبَرَأَ لِدِينِهِ وَعَرَضَهُ، وَمَنِ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلَكٍ حِمَى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمٌ. أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ". وقال أيضاً: {الحلالُ بينَ، والحرامَ بينَ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشَبَّهَة}. فمن ترك ما شُبِّهَ عليه من الإنم كأنه استبانَ أترَكَ ومن اجْتَرَأَ على ما يَشُكُ فيه من الإنم أو شَكَ أنْ يُوَاقِعَ ما استبانَ. والمعاصي حمى الله، من يرْتَعْ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ}. وقال تعالى: {... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتِي لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيْنًا...} المائدة 3 أي الدين كامل بما هو بين من حرام وحلال بموجب النصوص القرآنية والحديثية قطعية الثبوت وقطعية الدلالة، وما سوى ذلك لا داعي للبحث عن حكم شرعى له إنما هو مما سكت الله عنه رحمة بنا، وتركه لحكمتنا وعقولنا التي ركب فيها حبنا لما هو نافع وكرهنا لما هو ضار، وهذا ما يجب أن نتقيد به إن أمكننا أن نقيم دولة إسلامية صافية دينياً. أي ندعو الناس إلى الحلال البين وننهى عن الحرام البين ولا نقحم الدين فيما سوى ذلك من أمور مستجدة أو قديمة سكت عنها الشرع وتركها لنا نختار فيها الخير ونتجنب الشر. روى الترمذى في سننه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. قال: {مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهَ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَاحَهَا رِضَى لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيَاتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلُ الظَّمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرَّثُوا بَيْنَارًا وَلَا بِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ فَقَدْ أَخَذَ بِحَظِّ وَافِرٍ}. وهكذا يكون علماء الدين ورثة محمد - صلى الله عليه وسلم -. في أمور الكتاب ويكون علماء الدنيا من طب ونفس واجتماع واقتصاد وسياسة وغيرها من العلوم ورثة النبي - صلى الله عليه وسلم -. في أمور الحكم. رسالته تألفت من الكتاب والحكمة وورثته صنفان الأول يرث دوره في تبليغ الكتاب والثاني يرث دوره في التهوض بحياة الأمة وقدراتها في مجال الحكم. صحيح أن هنالك الكثير من أمور الحكم صارت من الكتاب عندما فرضها أو حرمتها الله ورسوله بشكل بين كالخمر والميسر والربا، لكن باقي الأمور الحياتية التي لم يرد فيها نص (آية أو حديث شريف) قطعي الثبوت قطعي الدلالة تبقى في دائرة العفو المتروك لعقولنا وحكمتنا وعلمنا واكتشافنا، دون تحليل أو تحريم. أي ما ثبت بالدليل القطعي أنه فرض أو أنه محرم هو الذي نأثره إن خالفناه أما ما سوى ذلك فعقوبتنا عليه تكمن في العاقبة غير السارة لأفعالنا غير المناسبة، ولا دور لعلماء الشريعة في الإفتاء فيها. وسيكون على علماء الدين القيام بما يسمى تحقيق المناط مثل التأكيد من أن عملية مالية مستجدة ليست صورة من صور الربا المحرم كالثورق الذي تمارسه المصارف

الإسلامية، ومثل التأكيد هل المسابقات التي تجريها بعض الجهات عن طريق قيام الناس بالاتصال الهاتفي بها اتصالاً يكلفهم أضعاف الكلفة الحقيقة وتستوفي هذه الجهة الجزء الأكبر من هذه الرسوم بعد أن تقطع شركة الهاتف رسوم الاتصال وعمولتها على تحصيل الأموال التي تذهب إلى الجهة المنظمة لهذه المسابقة والتي في النهاية تجري سحباً أو قرعة ليفوز أحد الذين اتصلوا بجائزة كبيرة واضح أنها تكون من المال الذي جمعته هذه الجهة من المتصلين ليبقى لها ربح كبير، فيبحث العلماء هل هذه المسابقة صورة من صور الميسر والقمار المحرم أم لا. سيسهر العلماء على تطبيق الشريعة كما جاء بها محمد - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يقوم الفقهاء بتوضيعها لتغطي كل شؤون الحياة وتعطيه حكماً شرعياً يكون بالضرورة حكماً اجتهادياً الغالب أن يختلف فيه الفقهاء وتتعدد أحکامهم تعداداً يحير الناس هل الأمر حلال أم حرام. وهذا يعني أن دور علماء الدين في الدولة الإسلامية يجب أن يبقى محصوراً في تعليم الناس دينهم وحثهم على الالتزام بما ثبت أنه حلال بين أو حرام بين، دون أن يبحثوا عن حكم شرعي لكل أمر، فالخمر والميسر بين الله أن أضرارهما أكبر من منافعهما لكن تركهما دون حكم شرعي يحرمهما مرحلة من الزمن ريثما تم إعداد الناس لترحيمهما بحكم أنهما مما تدمن النفوس عليه من عادات يصعب عليها تركه بمجرد أمر ينزل حتى لو كان من رب العالمين. وأعطي مثالاً التدخين مرة أخرى حيث يكون دور علماء الدين بخصوصه هو نصح الناس وتوعيتهم لا البحث عن حكم شرعي بتصنيف التدخين على أنه حرام يأثم من يقع فيه إثماً دينياً. هذه ليست دعوة إلى التدخين لكنها دعوة لحصر دور علماء الدين ودور الشريعة الإسلامية في ما ثبت تحريمه أو فرضيته ثبوتاً قاطعاً دون أن نقيس ما يستجد على ما ذكر في القرآن والحديث، بل نتركه خارج دائرة الحلال والحرام، أي خارج دائرة الدين لنكون نحن أعلم بأمور ديننا.

وهذا يعني تحرر الدولة الإسلامية من هيمنة رجال الدين عليها وتدخلهم في كل صغيرة وكبيرة فيها بحجة أنهم هم من يعلم حكم الشرع فيها. وهذا التصور للدولة الإسلامية هو التصور الذي يتفق مع خلق الله للإنسان وجعله خليفة له في الأرض، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةَ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُنْدِسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} البقرة 30، ونلاحظ هنا أن الملائكة اعتقادوا أنهم أجدر من البشر بدور الخلافة عن الله، وفاتهم أن هذا الدور مختلف عن دور الجندي الذي هم خلقوا له حيث لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، أما الإنسان المستخلف عن الله فدوره يشمل تحقيق صفات الله في نفسه وأولها الإبداع والاستقلالية ومنها العلم والكرم والاقتدار والرحمة والانتقام والعدل والصبر وغير ذلك مما هو مبين في أسماء الله الحسنى التي من أحصاها دخل الجنة. الله ليس كمثله شيء في حقيقته لكنه من رحمته بنا اختار لنفسه صورة تشبهنا قدم لنا نفسه من خاللها، لأننا لا يمكننا أن نشعر بالحب المتبادل مع كائن لا نضفي عليه في خيالنا صفاتنا البشرية، لنشعر بالحب والود له، ولنكون خلفاء في الأرض نخلق بأخلاقه ونحقق في أنفسنا صفاته بالقدر الذي نتمكن منه ككائنات صغيرة جداً ومحدودة الإمكانيات لكنها مكرمة عند الله. والمشكلة هي في عدم انتباه المسلمين الأوائل لأن الله خلقنا خلفاء نعبده ونحن نتشبه به بكل صفاته وأخلاقه وإن كان قد حرم علينا منها العظمة والكبriاء، وظنوا أن الإنسان خلق لعبادة الله على الطريقة الملائكية حيث الالتزام الحرفي بأوامر الله في كل شيء، وبالتالي ظنوا أن لا بد أن يكون لكل شيء حكم شرعي من حلال أو حرام أو مكره أو مستحب، وبفهمهم هذا للإسلام حولوا الإنسان الذي خلقه الله على صورته وجبله على طبائع تدفعه إلى أن يكون خليفة لله في أرضه إلى جندي ينفذ ولا يعترض، فال الخليفة هو النائب والوكيل من استخلفه، والله استخلفنا في الأرض استخلافاً اختبار وامتحان لا استخلاف استعاناً فهو الغني عنا ونحن الفقراء إليه. هذه أمور وغيرها سأفصل تأصيلها إن شاء الله في القسم الثاني من هذا الكتاب لكن لا بد من بعض البيان لها لأنها جديدة وغير مألوفة لأكثراً. في الدولة الإسلامية المعاصرة ينحصر دور الشريعة في الأحكام الثابتة ثبوتاً قطعياً لا خلاف فيه بين المسلمين، وتترك باقي الأمور للمسلمين يبحثون من خلال العلوم المختلفة عن ما هو خير ليفعلوه وما هو شر ليجتنبوه دون أن يعطى له حكم شرعي من تحليل وتحريم. ومن الأمور القطعية في ديننا

من حيث الثبوت والدلالة قوله تعالى: {لَا إِكْرَاهٌ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرُ بِالْطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا أَنْفَصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِ} البقرة: 256، وهذا يعني أن الأمة المسلمة لا يتم إكراهها على تطبيق الثابت من الشريعة إنما للأمة الحق أن تقرر من خلال الديمقراطية إن كانت ستقطع يد السارق أم ستسجنه، ويبقى الإثم من تعطيل الحكم الشرعي على من صوّت ضد هذا الحكم، ولا إثم على من صوّت لصالحه حتى لو كانت الأغلبية ضد تطبيقه وتعطل في هذه الدولة، فواجب المؤمن هو في إعطاء صوته لصالح تطبيق أحكام الشريعة لا إكراه الناس عليها بالقوة: {قَالَ يَا فَوْمٌ أَرْأَيْتُ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِّنْ رَبِّيْ وَاتَّاِيْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْلَرِمُكُومُهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ} هود: 28. لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ومن يريد الجنة عليه التزام طريق الرشد ومن يسير في طريق الغي يعرض نفسه في الآخرة لنار وقودها الناس والحجارة. لكن كما هي الديمقراطية يكون فيها تحكم الأقلية بالأقلية، ويفرض فيها على الجميع ما اختارتة الأغلبية، فإن دولة الإسلام القائمة على اللا إكراه في الدين يتوجب فيها على الأقلية الراضة لتشريع ما أن تخضع له إن نال أغلبية عند التصويت عليه، ولا مخرج للأقلية من الالتزام بما تعارضه إلا بالخروج من الأمة والانتماء إلى أمة أخرى لا تلتزم بهذا التشريع. فمن حرص على الانتماء إلى أمة لا بد عليه من الالتزام بما تفرضه الأغلبية فيها سواء قررت الأغلبية تطبيق حكم شرعي معين أو تعطيله، وكل فرد يتحمل من الإثم ويكون له من الأجر بحسب موقفه عندما طرح التشريع لتصوّت الأمة على تطبيقه أو عدم تطبيقه. في الدولة التي جميع أفرادها ينت�ون إلى أمة واحدة هي الأمة الإسلامية وإلى مذهب واحد هو المذهب السنّي مثلاً ولا يعيش معهم على نفس الأرض أمة أخرى كأتّاباع دين آخر أو مذهب آخر أو أناس لا دينيون، في هذه الدولة إن كانت ديمقراطية لا بد من خضوع الأقلية لرأي الأغلبية أحبوا ذلك الرأي أم كرهوه، لأنه لا تكون الديمقراطية إلا هكذا، وأنه لا يتحقق مبدأ اللا إكراه إلا من خلال الديمقراطية ومن خلال جعل السيادة أو ما يسمى الحاكمة للأمة تمارسها من خلال الآليات الديمقراطية. كما لا تتحقق خلافة البشر لله في أرضه إلا من خلال مبدأ اللا إكراه في الدين واللا إكراه في غير الدين، حتى يقوم الإنسان بعبادة الله طوعاً ويرغبته وإرادته دون ضغط أو إجبار من أحد.

في الدولة الإسلامية المعاصرة لا إكراه في الدين ولا يعاقب أحد على الكفر أو على رأيه المخالف في العقيدة أو الفقه وله أن يعبر عنه كما يشاء، طالما أنه لم يحاول فرضه على الناس ولم يعتد بالسب أو التحقير أو الاستهزاء والسخرية على ما يقدسوه، فحد الردة ليس حدأ ثابتاً وحکماً قائماً إلى يوم القيمة، بل هو استثناء لمبدأ لا إكراه في الدين مخصوص بقوم معينين وزمان ومكان محددين كما بينت في مقالتي الثالث (الطائفية والثورة في سوريا) وكما سأفصل إن شاء الله في قسم (التأصيل) من هذا الكتاب. سيكون الناس أحراراً في الدولة الإسلامية المعاصرة حرية كاملة لا تقل عن الحرية التي يتمتع بها الناس في الدول الغربية، ولن تتدخل الدولة في لباس النساء أو حجابهن كما بينت في مقالتي الأولى، كما لن يُرجّم من يزني، بل سنعود إلى الحد الذي شرعه ربنا في سورة النور وهو جلد الزاني والزندي مئة جلد، حيث نسخ به الحكم القديم الذي كان رجم الزاني والزندي إن سبق له أو لها الزواج رجماً حتى الموت. سيصحح المسلمون أخطاءً فقهية وقع فيها أسلافهم، لا إرضاء للغربين ودعاة حقوق الإنسان، بل لأن هذا هو الدين الحق ودين الرحمة والإنسانية. الإسلام عندما يجلد الزاني، هو لا يجلده لمجرد أنه زنى، بل يجلده لأنه جاهر بالزنا إما بالإقرار بالزنا أمام الناس والقاضي أو بممارسة الفعل الجنسي في العلن بحيث يرى أربعة رجال العملية الجنسية ذاتها دون شك بحدوثها وهذا ما لا يتحقق إلا في المسار التي يمارس عليها الممثلون الجنس أمام الجمهور أو الأفلام الجنسية أو ما شابه من المجاهرة والاستهان، فالإسلام لا يريد القضاء على الزنا بواسطة الحد الشرعي بل عن طريق التربية على التقوى والفضيلة وتيسير الزواج، ويبقى الحد لحماية المجتمع من أن يتحول الزنا إلى قدوة ونموذج لآخرين فتشريع الفاحشة في المؤمنين. وكذلك حد شرب الخمر سيعاد النظر فيه لنعود به لما كان على عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم -. عقوبة تعزيرية على السُّكُر والخروج بين الناس سكراناً يؤذيهم بصحبه وعدوانيته وقلة حيائه وشعوره بالعظمة الوهمية التي يعطيها له الخمر، حيث كان الرسول - صلى الله عليه

وسلمـ يأمر أصحابه أن يضرموا السكران بما تيسر لهم ضرباً يوقيه من سكره ويكسر كبراءه الزائفة فيشعر بالذل بدل العظمة ويكون ذلك له درساً يؤدبه حتى إذا شرب الخمر مرة أخرى استتر عن عيون الناس وكفاهم أذاه ولم يكن قدوة ونموذجًا لغيره يتعلمون منه هذا السلوك المحرم. هنالك حدود وأحكام ثابتة لن نتنازل عنها إرضاء لأحد أو حرصاً على إعجاب أحد بنا مثل قطع يد السارق، فنحن متبعون بتطبيقها ولن نخشى في الله لومة لائم، لكن لن نُكِرْ أمة عليها بل تُسْتَفْتَى الأمة، فإن رغبت الأغلبية فيها بتطبيق هذا الحكم طبقناه على الجميع، وإن رفضت الأغلبية تطبيقه سقط عنا الإنم وبقي علينا واجب محاولة إقناعهم بالتطبيق عن طريق الحوار دون عنف أو إكراه. لا بد داخل الأمة الواحدة من أن تخضع الأقلية للأكثرية، والبشرية لم تتوصل إلى نظام أفضل من الديمقراطية لتحقيق للناس أكبر قدر من الحرية واللاإكراه دون التحول إلى الفوضى وقانون الغاب. هذا إن كان سكان الدولة جميعهم أمة واحدة، أي طائفة واحدة، لكن، عندما تتعدد الأمم في دولة واحدة يختلف الأمر، وهو حال دول مثل سوريا يتكون أهلها من أمم مختلفة نسميها طوائف حيث فيها السنة والعلويون والدروز والإسماعيليون والمسحيون والشيعة الجعفريـ وفيها الملحدون والعلمانيـون واليساريـون وغير ذلك من طوائف وأديان ومذاهب.

أقول أمماً مختلفة وأنا أعود إلى الكلمة التي وصف بها النبي -صلى الله عليه وسلمـ الطوائف المختلفة في الدولة التي أسسها في المدينة المنورة وكتب وثيقة مفصلة تحفظ حقوق الجميع هي بحق أول دستور في التاريخ. نعم السوريـون كلهم يشكلون أمة واحدة هي أمة السوريـين، والمـواطـنة في سوريا ستكون على أساس كون الشخص سورياً بغض النظر عن جنسه أو قوميته أو عقيدته. السوريـون أمة كبيرة تتكون من أمم أصغر متنوعة ومختلفة.. هنالك طريقتان ليتمتع فيها جميع السوريـون بالمساواة فلا تفرض فئة منهم قناعاتها ومتقداناتها على البقية حتى لو كانت هذه الفئة هي الأغلبية عدديـاً وهمـاـ: العلمانية وحصر الأديان في العلاقة الشخصية بين المؤمنين وربـهمـ، أو التعددية التي تتحقق على كافة المستويـات سواء منها الثقافية أو السياسية أو التشريعـية على أساس مبدأ الإكراهـ. فالـأولـيـ أن تكون الدولة علمانية لا تسمح بتدخل الأديان في تنظيم شؤون البلاد وفي تشـريعـ القوانـينـ ويـتمـ حـصرـ الدينـ فيـ الحياةـ الفـردـيةـ كماـ هوـ الحالـ فيـ أورـباـ وـحتـىـ فيـ تركـياـ التيـ أـغلـبـ سـكـانـهاـ مـسـلـمـونـ،ـ وـهـذـهـ هيـ الطـرـيقـةـ التيـ حلـتـ بـهـاـ أـورـباـ مشـكـلتـينـ فـيـهاـ:ـ مشـكـلةـ تـسـلـطـ رـجـالـ الدـينـ عـلـىـ الـجـمـعـ إـلـىـ حدـ تـدـخـلـهـمـ فـيـ الـآـرـاءـ الـعـلـمـيـةـ وـإـدـامـ الـعـلـمـاءـ الـذـيـنـ لـاـ يـتـرـاجـعـونـ عـنـ آـرـائـهـ الـعـلـمـيـةـ الـتـيـ لـاـ تـوـافـقـ عـلـىـ الـكـنـيـسـةـ،ـ وـمشـكـلةـ اـضـطـهـادـ الـيهـودـ الـذـيـنـ كـانـواـ يـعـيشـونـ فـيـ الـمـجـمـعـاتـ الـأـورـبـيـةـ وـيـتـعـرـضـونـ لـلـتـميـزـ وـالـظـلـمـ بـسـبـبـ اـخـتـلـافـ دـيـنـهـ عـنـ دـيـنـ الـبـقـيـةـ،ـ وـبـذـلـكـ تمـ إـبـدـاعـ مـفـهـومـ الـمـواـطـنـةـ الـذـيـ يـعـنيـ أـنـ جـمـيعـ أـبـنـاءـ الـوـطـنـ لـهـ الـحـقـوقـ نـفـسـهـاـ وـعـلـيـهـمـ الـواـجـبـاتـ ذـاتـهـاـ بـغـضـ النـظرـ عـنـ أـدـيـانـهـمـ وـمـعـقـدـاتـهـمـ،ـ وـأـدـىـ ذـلـكـ إـلـىـ رـبـطـ الـمـواـطـنـةـ بـالـعـلـمـانـيـةـ حـيـثـ لـمـ يـكـنـ مـمـكـنـاـ الـمـساـواـةـ بـيـنـ الـجـمـعـ بـمـاـ فـيـهـ الـذـيـنـ تـرـكـواـ الـأـدـيـانـ مـاـ لـيـتـ يـتـمـ اـسـتـبعـادـ الـأـدـيـانـ مـنـ دائـرةـ التـأـثـيرـ فـيـ الـحـيـاةـ الـعـامـةـ وـالـتـشـريعـاتـ وـالـسـيـاسـاتـ الـمـتـبـعةـ فـيـ الـبـلـادـ.ـ السـوـرـيـونـ الـآنـ يـنـادـونـ بـالـمـواـطـنـةـ كـيـ يـكـونـ لـكـلـ سـوـرـيـ منـ الـحـقـوقـ ماـ لـغـيرـهـ وـعـلـيـهـ مـاـ الـواـجـبـاتـ مـاـ عـلـىـ غـيرـهـ لـمـ جـرـدـ أـنـ سـوـرـيـ بـغـضـ النـظرـ عـنـ جـنـسـهـ أوـ عـرـقـهـ أوـ دـيـنـهـ.ـ وـالـإـسـلـامـيـونـ السـوـرـيـونـ طـرـحـواـ بـرـنـامـجـهـمـ السـيـاسـيـ علىـ أـسـاسـ الـمـواـطـنـةـ السـوـرـيـةـ الـتـيـ يـتـسـاوـيـ فـيـهـ كـلـ السـوـرـيـينـ مـنـ كـلـ نـاحـيـةـ،ـ لـكـنـ باـقـيـ السـوـرـيـينـ لـاـ يـرـوـنـ الـمـواـطـنـةـ قـادـرـةـ عـلـىـ ضـمـانـ الـمـساـواـةـ لـهـمـ مـاـ لـمـ تـكـنـ الـدـوـلـةـ عـلـمـانـيـةـ،ـ إـذـ مـنـ خـالـلـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ يـمـكـنـ لـلـأـكـثـرـيـةـ السـنـيـةـ أـنـ تـفـرـضـ عـلـىـ الـجـمـعـ قـوـانـيـنـ وـأـنـظـمـةـ نـابـعـةـ مـنـ مـعـقـدـهـاـ الـدـينـيـ وـيـكـونـ عـلـىـ باـقـيـ السـوـرـيـينـ الـخـضـوعـ لـهـ لـأـنـ أـلـأـغـلـيـةـ السـوـرـيـينـ أـفـرـتـهـاـ وـهـكـذـاـ هـيـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ.ـ لـمـ يـنـجـحـ الـإـسـلـامـيـونـ فـيـ سـوـرـيـةـ وـلـاـ فـيـ غـيرـهـ فـيـ إـقـنـاعـ باـقـيـ فـئـاتـ الشـعـبـ أـنـهـ مـخلـصـونـ فـيـ مـنـادـاتـهـمـ بـالـدـيمـقـراـطـيـةـ وـالـمـواـطـنـةـ طـالـمـاـ أـنـهـ لـاـ يـنـادـونـ بـالـعـلـمـانـيـةـ،ـ وـهـمـ إـنـ نـادـواـ بـالـعـلـمـانـيـةـ فـقـدـواـ صـفـةـ الـإـسـلـامـيـةـ.ـ فـالـجـمـعـ يـظـنـ أـنـ الـإـسـلـامـيـينـ يـنـادـونـ بـالـمـواـطـنـةـ وـالـدـيمـقـراـطـيـةـ كـتـكـيـكـ مـرـحـليـ رـيـثـماـ يـمـكـنـونـ وـيـصـلـونـ إـلـىـ الـحـكـمـ وـيـحـكـمـونـ قـبـضـتـهـمـ عـلـىـ الـبـلـادـ وـالـعـبـادـ،ـ وـعـنـدـهـاـ سـيـعـودـونـ إـلـىـ مـعـاملـةـ الـنـاسـ عـلـىـ أـسـاسـ مـعـقـدـاتـهـمـ،ـ وـسـيـنـسـونـ الـمـواـطـنـةـ وـسـيـتـمـسـكـونـ بـالـدـيمـقـراـطـيـةـ مـنـ دـوـنـ عـلـمـانـيـةـ لـأـنـهـ تـعـطـيـهـمـ الـحـقـ فـيـ الـانـفـرـادـ

بالسلطة لأن أغلبية السوريين مسلمون سنة، وعندما تعاني باقي الأقليات من تحكم الطائفة السنوية لأنها أكثرية ويكون هنالك استبداد ودكتاتورية الأغلبية على الأقليات.

ويبقى السؤال: كيف نحقق ديمقراطية لا تطغى فيها الأكثرية على الأقلية ولا تكون علمانية في الوقت نفسه، والديمقراطية هي في جوهرها حكم الأغلبية؟ إنني وجدت الجواب واضحاً في وثيقة المدينة المنورة التي نظمت حياة سكانها عندما تحولت المدينة إلى دولة يرأسها محمد - صلى الله عليه وسلم -. إنه الاعتراف بالطوائف والأديان لا إنكارها وتهميشه، بل بإعطاء المجال لكل طائفة لتطبيق الشريعة التي ترضيها مهما قل عددها أو كثر، فهي أمة مع المؤمنين - أي أتباع محمد - صلى الله عليه وسلم -. كما جاء في الوثيقة - لها الأسوة - أي المساواة - وكمال الحقوق كأمة من حيث حرية معتقداتها وممارساتها الدينية ومن حيث تطبيقها لشريعتها الخاصة بها والنابعة من معتقداتها الدينية. في الغرب العلماني تضمن العلمانية أن لا يطبق المسيحي قوانيناً نابعة من دينه على اليهودي أو على الملحد، لكن هذه العلمانية تحرم الأقلية المسيحية المؤمنة مثلاً من أن تطبق على نفسها ما تختاره من شرائع، وهكذا ليست المواطننة في إطار العلمانية أكثر عدلاً من المواطننة في أمة دين الدولة فيها الإسلام ويعيش فيها غير مسلمين، وإن اختلفت الفئة المظلومة في الحالة الأولى عن الفئة المظلومة في الحالة الثانية. ونحن إن طبقنا المواطننة مع العلمانية كما يفعل الغرب تعرضت الأقلية المؤمنة بالإسلام السنّي للظلم حين لا يسمح لها أن تطبق على نفسها الشريعة التي تؤمن بها، وهذا يعني أنه من أجل الأقليات ستتحرج الأكثرية من حقها في تطبيق الشرع الذي تؤمن به على نفسها. إذن الحل في التعديلية بأوسع معانيها بما في ذلك التعديلية التشريعية، والتعديلية هي أحدث ما وصلت إليه البشرية من تقدم سياسي وثقافي يضمن الحرية والمساواة لجميع المواطنين في مجتمع ما. ويبقى السؤال: إن طبقة الأقلية السنوية ما شاءت من شريعة على نفسها فهذا يعني أن كل السنة بما فيهم الملحدون سيخضعون للشريعة الإسلامية وسيكون ذلك نوعاً من التمييز والاضطهاد لهم. هذا صحيح لذلك لا بد من الاعتراف بأمة أو طائفة جديدة هي طائفة السوريين العلمانيين ينتهي إليها من شاء من أبناء الطوائف السورية الذين لا يرغبون في الخضوع لأية تشريعات دينية، وعندما يكون هنالك قانون مدني سوري علماني بالموازاة مع آية قوانين خاصة بالطوائف المختلفة سواء في الأحوال الشخصية أو العقوبات أو المعاملات المالية، ويتم العمل بهذا القانون المدني العلماني - الذي يختاره السوريون بطريقة ديمقراطية - في كل الحالات التي يكون فيها المتعاملون أو المتخاصمان من الطائفة العلمانية، أو من طائفتين مختلفتين، ما لم ينص الاتفاق بينهما على الاحتكام لشريعة أحدهما عند الخلاف. أي سيكون الأصل في الدولة السورية المنشودة أنها علمانية، لكن لكل طائفة من طوائف السوريين الحق في الاحتكام إلى شريعتها التي ترضيها وتتوافق عليها بطريقة ديمقراطية، وهذا يعني أنه سيكون هنالك برلماناً لكل طائفة، لتمارس من خلاله الطائفة كل حقوقها بشكل ديمقراطي حقيقي دون المساس بحقوق الطوائف الأخرى، وحتى لا تحصل فوضى وتهرب من الأحكام التي لا تعجب أحدنا سيكون على كل منا أن يحدد انتماءه الطائفي ويثبت ذلك في سجلات الدولة، فالسوري يكون إما علمانياً مهما كان أصله الديني، أو سنياً أو مسيحياً أو درزيَاً أو علويَاً أو إسماعيلياً أو آثورياً أو جعفرياً أو أي معتقد يكون من السوريين من يؤمن به ويريد أن تحدد هويته على أساسه. ويبقى لكل سوري الحرية المطلقة والحق في الانتقال من طائفة إلى أخرى متى شاء على أن يتم ذلك بطريقة رسمية موثقة لدى الدولة، دون أن يخشى من حد ردة ولا غيره. في الدولة الديمقراطية التعديلية تكون هنالك مواطنة حقيقة تضمن المساواة لجميع المواطنين وتعطيهم الحقوق نفسها بغض النظر عن معتقداتهم دون أن تمنع المؤمنين من أي دين من العيش كما يؤمنون ووفق الشرع الذي يرتضون. هو نوع من الحكم الذاتي أو الاتحادي الفدرالي لكنه لا يقوم على أساس المناطق الجغرافية المختلفة التي توحدت اتحاداً فيدرالياً لتشكل دولة واحدة، بل يقوم على أساس الجغرافية الثقافية ولو كان أعضاء الطوائف المختلفة متداخلين أو حتى متزاوجين ويشتركون في المدن والقرى والأحياء، أي ستلتزم كل طائفة بقدر من الاستقلالية ضمن إطار الدولة السورية الواحدة وتحت عنوان المواطننة السورية التي لا تعطي الاعتبار إلا

لكون الشخص سورياً. لقد أثبتت الفيدراليات أنها أفضل من الاتحادات الاندماجية وأقدر على البقاء منها لأنه فيها تتمتع كل منطقة بقدر من الاستقلالية ويكون إمكانية الظلم وطغيان منطقة على أخرى أقل ما يمكن، وهكذا عندما تكون الأمة السورية مكونة من عدة أمم بحسب المعتقد الديني أو الثقافي، وتتمتع كل أمة باستقلالية مريحة لها في إطار دولة علمانية ليس لها صبغة دينية لأنها دولة جميع السوريين، وفي الوقت نفسه تطبق كل أمة من هذه الأمم الفرعية أي كل طائفة ما تراه مناسباً من تشريعات على أساس دينها ومعتقداتها، يكون الجميع مرتاحاً ومكرماً ولا تطغى الأكثريّة على الأقلية كما لا تطغى الأقلية على الأكثريّة، ويكون الناس حقيقة مصدر السلطات في المجتمع كل ضمن طائفته، ثم يكون الجميع مصدر السلطات على مستوى الدستور والقوانين المدنية التي لا تصطبغ بأية صبغة دينية لكنها تفسح المجال لتطبيق كل طائفة لشريعتها الخاصة، وينظم الدستور هذا النوع والتعدد بما يضمن حفظ الحقوق والحريات والعدل والمساواة بين جميع السوريين. وأريد أن أتبّع إلى أن التعديل التشريعية على أساس الأديان والمعتقدات لا تتعارض مع الفيدرالية إن وجد السوريون مصلحة لهم فيها، لكن الفيدرالية تكون على أساس جغرافي تستقل فيها كل منطقة بإدارة شؤونها وتبقى القوانين التي تنظم حياة كل طائفة من طوائف السوريين مطبقة في جميع المناطق، وحيث وُجد المواطن السوري المنتمي لطائفة معينة تطبق عليه تشريعاتها. يمكن أن يتشكل البرلمان السوري من مجموع البرلمانات الطائفية بما فيها طائفة العلمانيين، وهنا أذكر أن طائفة العلمانيين تتضمّن كل من يرغب بأن ينتمي إليها حتى لو كان متدينًا، طالما أنه يريد التحاكم إلى القوانين المدنية في كل شؤونه بما فيها أمور الزواج والأسرة والميراث، ولن يكون الانتفاء للطائفة العلمانية مساوياً للانتفاء لطائفة الكفار، كما يمكننا إن شئنا أن نسمّيها طائفة السوريين المدینيين. سيبقى المجال مفتوحاً للسعي إلى تطبيق الشريعة لكن بالإقناع لا بالإكراه، وعلى أبناء الدين نفسه لا على أتباع الأديان الأخرى، ولن يكون هنالك ذميون في دولتنا الجديدة وإن كانت دولة فيها الحرية الدينية الكاملة ويمكن للناس أن يمارسوا فيها السياسة على أساس الدين، طالما أن فرض الشريعة سيبقى محصوراً ضمن من ينتمي للطائفة السنّية ويستثنى منهم من يضع نفسه في الطائفة المدنية أو العلمانية ولا خلاف على التسمية. وسيكون لكل سوري الحق في محاولة إقناع باقي السوريين لتبني قانون ما على مستوى الأمة السورية حتى لو كان هذا القانون مأخوذاً من الشريعة الإسلامية أو من أي عقيدة أخرى، هو له نيته وذلك بينه وبين ربه، ونحن لنا أن نناقش القانون المقترن وإذا وافقت عليه أغلبية السوريين فإنه سيبقى قانوناً مدنياً ولو كان في الأصل مأخوذاً من دين من الأديان، لا يهم مصدره حين نريد تطبيقه على مستوى سورية كلها التي لن يكون لها دين من الأديان بل ستكون دولة لكل السوريين وعلى مسافة واحدة من كل طوائف السوريين. ولا يؤثر على الثواب الذي نريده من الله على تطبيق تشريع إسلامي ما، فيما لو كان هذا التشريع قانوناً مدنياً من الناحية الرسمية، فربنا يعلم ما في قلوبنا. المهم أن يكون كل شيء بلا إكراه ويكون بحرية وديمقراطية حقيقية. عندها سيكون من حق أي سوري رجلاً كان أو امرأة أن يترشح لرئيس الجمهورية، وسيكون من حق كل سوري أن يختار منطلاقاً في اختياره من معتقده الديني أو مستبعداً الدين وحاصرأ له في الحياة الشخصية. المهم أن يتم انتخاب الرئيس من خلال ديمقراطية حقيقة، وإن كنت كمسلم أؤمن أنه لا يجوز أن يكون رئيس دولتي غير مسلم فلي الحق في أن أعبر عن ذلك من خلال صندوق الانتخاب، وإن جاءت الأمور على غير ما أؤمن به لأن ينتخب السوريون امرأة أو غير مسلم لرئاسة الجمهورية فإنها لن تكون نهاية العالم، لأن رئيس الجمهورية لن يكون الحاكم بأمره، بل سيكون موظفاً رفيع المستوى في دولة ديمقراطية لا تعطيه الفرصة كي يستبد ويحكم بهواه، ولن يكون عليٌ وزير أو إثم إن كنت بذلك ما أستطيع من جهد سلمي وقانوني من أجل إيصال المرشح الذي أرحب في أن يكون رئيساً للجمهورية سواء كان تفضيلي له على أساس الدين أو على أساس الجنس.

يجب أن يدرك كل منا أنه فرد واحد لا يحق له أن يُكْرِه الآخرين على ما يراه مناسباً، بل له أن يدعوه إلى ذلك بالكلمة الطيبة، ولن يكون ملماً عند الله إن لم يستجيبوا لدعوته، فكم من رسول لم يستجب لدعوته أحد أو استجاب له قلة قليلة

فقط. يجب أن لا نُحمل أنفسنا فوق طاقتنا ولا أن نفرض وصاية على غيرنا، اللهم إلا أن نجير أولادنا على الصلاة ضمن عملية تربيتنا لهم حتى إذا بلغوا مبلغ الرجال والنساء توقفنا عن إجبارهم وعاملناهم كبار لهم كامل الحرية، إنما ندعوه برفق وموعظة حسنة لما نعتقد أنه خير لهم. في الدولة السورية المنشودة سيكون للناس حرية التعبير عن أي شيء وبالطريقة التي يختارونها لكن لن يكون لهم حرية السخرية أو شتم أو إهانة الرموز الدينية لأي طائفة من السوريين حتى لو كان هذا الرمز هو بونا أو غيفارا، فالله حرم على المؤمنين أن يسبوا الآلهة والأصنام التي كان مشركوا العرب يعبدونها كي لا يسب هؤلاء الله رداً على سب المؤمنين لآلهتهم المزعومة، قال تعالى: {وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيَنْبَيِّبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} الأنعام 108، أي سيكون لمن شاء أن يجادل بما شاء من أفكار لكن لن يكون له الحق أن يشتم الله أو الرسول أو القرآن أو الصحابة أو غير ذلك من رموز لأية طائفة دينية، سيكون هناك حرية تفكير وتعبير لا يحدها شيء إلا وجوب احترام باقي السوريين والاعتراف لهم بأنهم {أَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} الكافرون 6، أي سيعرف المؤمن للكافر بحقه في أن يعتقد ما شاء ويعبد ما شاء دون أن يكون لأحد حق إكراه غيره على اتباعه، فالإنسان كائن مستخلف له الحرية أن يفعل ما يشاء طالما أنه لم يعتد على حقوق الآخرين وطالما أن الله سيحاسبه يوم القيمة فيعطي الجنة لمن آمن وعمل صالحًا ويدخل النار من استكبر وأصر على الكفر وعصيان الخالق. ولنا أن ندعوه بالحكمة والموعظة الحسنة وبالرفق وبالتي هي أحسن، علينا عندما ندعوه أن تكون مخلصين في حبنا للخير له وفي حرصنا على هدایته من أجله لا من أجلنا، ولفائدة لا لفائدة، وعندها ستتحقق الدعوة أعظم النتائج بعكس الإكراه الذي لن ينتج إلا المنافقين الكارهين الذين يتربصون بنا الدوائر.

الإنسان مفطور على الاستقلالية ومحاولة إجباره على شيء يجعله يكره هذا الشيء ويرفضه حتى لو كان فيه الخير له لأنه يريد أن يشعر بحريته واستقلاليته، قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} يونس 99. وسيكون الوالدان بما صاحبا الكلمة فيما يوجه لأطفالهما من تعليم ديني أو لا ديني، حتى إذا بلغ الأطفال السن القانونية صاروا هم المسؤولين عن أنفسهم ولهم الحرية التامة في أن يختاروا لأنفسهم كباقي السوريين. في الدولة السورية المنشودة كما في أي دولة إسلامية صافية دينياً لا مجال للعنف في سبيل التغيير الاجتماعي والسياسي أبداً، بل الجهاد سيكون كلمة حق عند سلطان جائز، أي جهاد بالوسائل السياسية اللاعنفية كالعصيان المدني والتظاهر والاعتصام ووسائل الإعلام وغير ذلك مما لا يمارس فيه القتل أو الإكراه من أي نوع، وهذا لا يتناقض مع أن من قُتِلَ دون نفسه فهو شهيد ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ومن قتل دون ماله فهو شهيد.

المصادر: